الفصل الثالث

الاصلاح الدينى في أوربا

شهد القرن السادس عشر الميلادى انقساما كبيرا بين رجالات الكنيسة الكاثوليكية فى غرب اوربا ادى الى اهتزاز نفوذ الكنيسة الروحى والأخلاقى بين الناس ، وتدهور سمعتها ، وفقدانها لهيبتها الدينية مما نتج عنه ظهور مذاهب جديدة مخالفة للمذهب الكاثوليكى بغرض تقويمه ، واصلاح المفاسد التى تردت فيها الكنيسة ، وفى محاولة للتحرر من قيودها .

وترجع أسباب هذا الانقسام الى البذخ الذى كان يعيش فيه الباباوات وكبار رجال الدين ، وجمعهم بين الصفة الدينية والصفة الدنيوية ، والزج بأنفسهم فى غمار الحياة السياسية ، ومنافستهم للملوك والأمراء والدوقات فى حياة الترف واللهو وتشييد القصور وجمع المال والسعى وراء المصالح الخاصة .

وقد زاد الطين بلة تجرؤ أحد الباباوات وهو « كلمنت الخامس » بنقل مقر البابوية من مقرها الأصلى فى روما الى « أفينون » بفرنسا حيث ظلت هناك حبيسة تحت السيطرة الفرنسية حوالى اثنين وسبعين عاما . ونظرا لأن البابوية كانت تستمد هيبتها من كرسى القديس بطرس فى روما ، فقد وجد الأوربيون فى انتقالها الى فرنسا لطمة لها خصوصا وان رجالها كانوا محاطين بالنفوذ الفرنسى مما جعل بعض المؤرخين يطلقون على هذه الفترة اسم فترة « الأسر البابوى » .

كل ذلك ادى الى اهتزاز مركز البابوية وضياع هيبتها وزعامتها للعالم المسيحى ، وزاد الأمر سوءا انقسام كرادلة الكنيسة على انفسهم فى اختيار الباباوات حتى أصبح الذى يدير شئون العالم المسيحى فى أوربا ثلاثة باباوات أحدهما فى أفينون بفرنسا والآخر فى روما بايطاليا ، والثالث فى بيزا بايطاليا أيضا .

وقد أخذ كل بابا من هؤلاء يطعن فى زميله ، وفى صلاحيته لتولى الكرسى البابوى ، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل قام بعض الباباوات باصدار قرار الحرمان ضد الآخر ، كل ذلك أدى الى جعل سلطة الباباوات موضعا للنقاش والجدال بين الناس ، وانقلب الأمر الى قيام صراع بين مؤيدى بابا افينون ، ومؤيدى بابا روما وبابا بيزا .

ونظرا لخطورة هذه المشكلة فان هذا الوضع لم يستمر طويلا حيث انتهى الأمر بحسمها ، فصار للباباوية كما كان فى أول الأمر بابا واحد هو « مارتن الخامس » ومقر واحد هو مدينة روما مما أعاد الى الباباوية وحدتها .

وعلى كل حال فقد دفعت الأوضاع المتردية فى الكنيسة الى قيام بعض الغيورين على كيان الدين المسيحى بالمناداة بازالة المفاسد التى يقع تحت تأثيرها رجال الدين ، والعكوف على الدراسات الدينية الجادة ، وكان من أبرز هؤلاء « سافونا رولا » الذى أبرز مخازى الباباوية بشكل فاضح وطالب باصلاح أمورها المتردية . ومارتن لوثر الذى قام بحركته فى المانيا ، وساعدته على ذلك الظروف المتردية القائمة هناك ، خصوصا وان أهلها ذاقوا الأمرين من تحكم الباباوات ومظالم رجال الدين وارتكابهم جرائم الرشوة والابتزاز والظلم والاكراه ، ومن أمثلة ذلك انهم كانوا يجمعون الأموال من الأهالى بحجة انفاقها على الاستعدادات الخاصة بشن حروب صليبية على المسلمين ، فى حين أنهم كانوا ينفقونها على الملاذ الدنيوية من بذخ وترف ومفاسد . يضاف الى ذلك ان ابتداع فكرة صكوك الغفران وبيعها لمن يريد التوبة ودخول الجنة من الأهالى بدلا من ذهابه الى روما للحج وتحمل المشاق[1] ، كل ذلك أثار ثائرة المصلح الدينى مارتن لوثر ، فدعا الى

---

(١) أصل الفكرة ترجع الى عام ١٥٠٦ عندما كان البابا جول الثانى بحاجة الى الأموال لاتمام بناء كنيسة بطرس فى روما ومن هنا فكر فى الحصول على الأموال بواسطة صكوك الغفران التى يمنحها للمؤمنين مقابل ما يدفعونه من أموال تصرف على أعمال البناء ثم انجرف الباباوات بهذه الفكرة الى المتاجرة بها بعد انتهاء الغرض الأساسى منها .

اصلاح الكنيسة من مفاسدها والرجوع الى تعاليم الانجيل .

ونظرا لدور مارتن لوثر المهم فى قلب موازين الأمور الدينية فى أوربا ، وتأسيسه للمذهب البروتستانتى فسنعرض له ولدوره .

نشـــأة مارتن لوثر :

ولد مارتن هانس لوثر باحدى قرى سكسونيا الألمـانية فى عـام ١٤٨٣م من أبوين فقيرين ، ويبدو أن فقر أسرتـه كان له تأثير كبير عـلى نشأته حيث انه تربى فى طفولته تربية صارمة وشديدة ، وعاش فى ظـل حياة قاسية وصعبة انتشرت فيها الخرافات الدينية والمعتقدات الزائفـة التى صورت المسيح فى صورة المنتقم الجبـار الذى يتوعد الناس بأقصى أنواع العقوبات ، فتسلط عـلى مارتن لوثر القلق النفسى والخـوف من ارتكاب الآثام ، وخشى أن يختطفه الموت وعليه بعض الذنوب .

وعلى الرغم من فقر والد لوثر ، وقلة أمواله فقد أصرت أسرة مارتن على تعليمه ، خصوصا وان والده كان يحلم فى أن يرى ابنه رجلا من رجـال القانون ونتيجة لذلك اتجه الى دراسة القانون ولكنه لم يستمر فيها طويلا حيث اتجه الى الدراسات الدينية وانخرط فى سلك الرهبنة عسى أن يكون فى ذلك خلاص من ذنوبـه ، ودخـل فى أحد أديرة القديس أوغسطين فى عـام ١٥٠٥م أمـلا فى تطهـير نفسـه مـن الخطـايا والذنـوب والوصول الى رحمة الله ، ونظرا لتفوقه فى الدراسات الدينية واللاهوتيـة حصل على شهادة جامعية تعادل الدكتـوراه وكلف بالتدريس فى جامعـة فتنبرج وبدأ يتقلد مناصب عديدة .

وفى عام ١٥١٠م أتيحت الفرصة لمـارتن بزيارة روما لمدة شـهر ، وهناك رأى بنفسه ما عليه رجال الكنيسة من انحلال وفساد وانهيار القيم ، وما يقوم به البابا من جمع الأموال مقابل صكوك الغفران التى يدعى بأنها تكفر الذنوب كل ذلك دفعه الى الثورة على البابا والهجـوم على مفاسـد الكنيسة ، والدعوة الى المذهب البروتستانتى الذى تتلخص فكرته فى أن الايمان المطلق برسالة القديس بولس الى أهل رومية وهى أن « البـار بالايمان يحيا أى « السلام بالايمان وحده لا بالأعمال » وسميت بعقيـدة

التبرير بالايمان ، ثم أخذ فى عرض أفكاره حول هذه الرسالة أمام تلاميذه مفندا لها بالحجج والبراهين القاطعة ، ومطالبا باقامة كنيسة تعود بالدين الى أصل الكتب المقدسة وتؤسس على مبادىء وتعاليم الانجيل لا على مطالب رجال الدين فى روما ومناديا بضرورة فهم العامة لأمور دينهم ، ورفع سيطرة رجال الدين على ضمائرهم وعقولهم ، وداعيا لنشر التعليم المدنى الذى يتيح الفرصة للأفراد لنيل قسط من التعليم بعيدا عن تدخل الكنيسة .

وفى عام ١٥١٧م جاء الى سكسونيا الخطيب الموهوب الراهب « حنا تتزل » الدومينيكى كمندوب عن البابا من أجل بيع صكوك الغفران ، مدعيا انها كافية لتخليص من يشتريها من كل ما ارتكبه من آثام وخطايا وعندئذ وجد لوثر الفرصة المواتية لكشف المهازل التى يرتكبها البابا باسم الكنيسة فاستغل فرصة تجمع الناس عند كنيسة « فيتنبرج » بمناسبة عيد الشهداء ، وأعلن استنكاره لعملية بيع صكوك الغفران موضحا ان النجاة من النار والثواب والعقاب لا يتم عن طريق شراء صكوك الغفران ، وانما تأتى عن طريق الايمان بالله واصر على أن الكتاب المقدس وحده هو دستور المسيحيين .

كما علق لوثر على أبواب هذه الكنيسة القضايا الخمس والتسعين الشهيرة التى تؤكد فساد الكنيسة ، وطالب بمناقشة مندوب البابا علانية ، كما طالب بالسماح للقساوسة بالزواج وأعلن ان الطلاق أمر شرعى فى الكنيسة وأن الغفران رهن برحمة الله ، وانه ليس للبابا وحده حق تفسير الانجيل ، كما طالب لوثر البابا أن يعترف بحقيقة هذه الأمور ، كما أعلن تأييده للنزعة القومية التى ظهرت فى المانيا وطالب رجالاتها بادارة شئون الكنيسة ، وناشد الأمراء الألمان بتزعم حركة الاصلاح الدينى ، وقد وافقه العديد من الأمراء على رايه خصوصا وانهم كانوا يرون أن سلطات البابا تحد من حريتهم وتصرفاتهم .

ونتيجة لذلك عبأ لوثر الراى العام الألمانى ضد تصرفات الكنيسة وساعده على ذلك اختراع الطباعة فى المانيا حيث جعل منها لوثر وسيلة لنشر أفكاره خصوصا وأن المجلات والجرائد لم يكن عرفت بعد مما سهل

توزيع احتجاجه ومجادلته ونقده لتصرفات الكنيسة فى طول البلاد الالمانية وعرضها ، ورواج كتبه ومؤلفاته الخاصة بآرائه تجاه الكنيسة . ونتيجة لسخرية كتابات لوثر وطعنها فى الكنيسة فقد أصدر البابا ليو العاشر قرار الحرمان ضد لوثر وأعلن طرده من رحمة الكنيسة فى ديسمبر ١٥٢٠ الا أن لوثر لم يعبأ بذلك القرار بل قام باحراقه علانية أمام الناس فى ساحة فيتنبرج ونشر بعد ذلك رسالته الشهيرة عن الأسر البابوى للكنيسة مبينا ضعفها ومفاسدها ، كما تهجم على رجال الدين مبينا خداعهم للمسيحيين .

ونتيجة لتدهور الموقف واهتزاز سلطة الكنيسة طلب البابا من شارل الخامس امبراطور الدولة الرومانية تنفيذ قرار الحرمان ضد لوثر وقمع حركته باعتباره مارقا وملحدا وخارجا على التعاليم المسيحية .

ونتيجة لذلك دعا الامبراطور مارتن لوثر الى المثول أمام المجلس الامبراطورى لمحاكمته والنظر فى افكاره ومطالبته بأن يعترف بخطيئته .

وعلى الرغم من خطورة موقف لوثر فقد أصر على آرائه خلال المحاكمة ولم يتراجع عن آرائه أو عن موقفه مما جعل أعوانه وأتباعه يتزايدون ، وجعل هيئة المحكمة تعده خارجا على القانون ، فحكم عليه باهدار دمه باعتباره هرطقيا ، وحرمانه من كافة حقوقه الدينية الا أن الأمير فردريك أمير مقاطعة سكسونيا وضعه تحت حمايته ، كما التف حوله بعض رجال الدين الساخطين على تصرفات كنيسة روما ، وتحكم البابا فيهم مما زاد من شأنه واضعف القرار الباباوى ضده .

وقد وضع أمير سكسونيا مارتن لوثر فى مخبأ بعيد عن الأنظار لمدة سنة كاملة ، مما أبعده عن العقوبة وساعد على ذلك انشغال الامبراطور فى أمور مهمة أخرى منها وقف زحف الأتراك العثمانيين على أوربا .

وخلال هذه الفترة قام لوثر بترجمة الانجيل الى الألمانية عن النص اليونانى ، باسلوب يتسم بالوضوح وقوة الاسلوب ، مما أوقد الروح الوطنية لدى الشعب الألمانى وساعد عامة الناس فى الاطلاع على الكتاب المقدس ، وأدى الى اثراء اللغة الألمانية ، وازدهار آدابها .

ونتيجة لذلك استمرت حركة الاصلاح الدينى وبدأت اللوثريـــة فى اكتساح معظم الطبقات الألمـــانية واثارة المعانى الدينية والخلقية القائمة على هدى الكتاب المقدس بين أفرادها . وخلال ذلك رات بعض الطبقات فى هذه الحركة اصلاحا لأحوالها والحصول على بعض الامتيازات فقـــامت بالثورات التى كان من أبرزها « ثورة الفرسان » و « حركة الفلاحين » .

وعن ثورة الفرسان فقد وجد الفرسان الذين كانوا قد فقدوا الكثير من امتيازاتهم فى الحركة اللوثرية فرصة لاستعادة نفوذهم فهاجموا الكنائس وحطموا ما فيها من صور وتماثيل واستولوا على ما فيها من نفائس ولكن الأمراء استطاعوا القضاء على ثورتهم وبالنسبة لحركة الفلاحين فنظـــرا لأن هذه الطبقة كانت تعانى من أوضاعها الاجتماعية والاقتصادية فقد قامت بثورة انتشرت فى جميع أحاء المـــانيا بسرعة فائقة ، مطالبة بالتخلص من عبودية الأرض وضرورة تحديد الخدمات الاقطاعيـــة المفروضـــة عليهم ، وتخفيف ضريبة العشور الكنسية ، والغاء الرقيق والمســـاواة فى الملكية ، والحق فى اختيار رجل الدين فى كل مجتمع من مجتمعاتهم .

ونتيجة لاستخدام أصحاب هذه الثورات للعنف تحت قناع اللوثرية اضطر مارتن لوثر الى الظهور من مخبئـــه لاعلان ان حـــركته بريئـــة من اتخاذ العنف وسيلة لتحقيق أهدافها .

ونظرا لأن الامبراطور شارل الخامس كان مشغولا خلال هذه الفترة بحروبه ضد فرنسا فى ايطاليا ، وفى وقف زحف العثمانيين عـــلى النمسا والمجر ، فانه لم يتخذ أى موقف صريح ضد اللوثريين .

والى جانب ذلك فانه نظرا للخـــلافات التى كانت قائمـــة بين البابا والامبراطور فى ذلك الوقت انقلب الوضع لصالح لوثر واتباعه حيث اجتمع المجلس الامبراطورى فى « بافاريا » فى يونيو ١٥٢٦ لبحث القرار الصادر باهدار دم لوثر ومصادرة كتاباته ، واصدر قرارا فى غير صـــالح الكنيسة الكاثوليكية وهو ان لكل أمير الحق فى اختيار المذهب الدينى الذى يريده فى امارته ، وبذلك اصبح لأتباع لوثر مذهبا شرعيا معترفا به فانتهزوا هذه الفرصة وتطلعوا الى الاستئثار بأموال الكنيسة ، وقاموا بالاستيلاء على أملاكها فى مقاطعاتهم ، وطردوا اتباع البابا من رجال الدين .

ونظرا لتطور الموقف السياسى بين البابا والامبراطور هاجمت قـوات الامبراطور روما وأسرت البابا ونتيجة لانتشار اللوثرية وما تبعه من انقسام خطير هدد الامبراطورية دعا الامبراطـور الى عقد المجلس الامبراطـورى مرة ثانية ، وفيه تراجع عما أصدره من قرارات فى المجلس الأول ، فأمـر بالغاء الحرية التى اعطيت للأمراء لاختيار المذهب الذى يريدونه فى ولاياتهم ، كما أمر بقمع اللوثرية واهدار دم لوثر .

ونتيجة لذلك احتج الأمراء اللوثريون لأن هـذه القرارات ستحرمهم من الثروة التى هبطت عليهم بعداستيلائهم على ممتلكات الكنيسة ، لذلك قرروا عدم الموافقة عـلى تلك القـرارات وسـموا أنفسهم بالمحتجـين Protestant وهو الاسم الذى يحمله أتباع هـذا المذهب حتى اليوم ، ونظرا لتدهور الموقف وامكان حدوث حرب دينية بين المسيحيين فى حين كان الأتـراك العثمانيون يحاصرون فينا فى عام ١٥٢٩ فقد حـاول الامبراطور أن يحـل المشـكلة سـلميا وبشـكل مؤقت فعقد مجلسا فى « أوجزبرج » عام ١٥٣٠ دعا فيه الأمراء البروتستانت للاجتماع مع الأمـراء الكاثوليك فى محاولة لفض النزاع بينهما ، وكان الامبراطور فى هذا المجلس مترددا وحائرا حيث تمسك كل فريق برأيه ففى حين كان متأثرا برأى رجال الدين الكاثوليك لم يستطع أن يابى طلبهم بالضرب على أيدى البروتستانت ، ولمـا حاول التقريب بين الطرفين كان البون شاسعا ولم تفلح وسـائل اللين مع البروتستانت للرجوع عن أفكارهم ومن هنا رأى البابا أتباع الشدة فأصدر قرارا بتحريم اللوثرية ومعاقبة اتباعها أشد العقاب اذا لم يتراجعوا عن أفكارهم .

ولمـا تبـين للبروتستانت مـدى الأخطـار التى لحقت بهم قرروا الاجتماع فى مدينة شمالكلد عام ١٥٣١ وهناك كونوا حلفا أعلنوا فيه انهم لن يرضخوا للقوة ، وسوف يدافعون عن مبادئهم ومصالحهم بكل قـوة ، وانه اذا تعرض فريق منهم للعدوان هب الجميع لنصرته .

وقد ناقش المجتمعون كيفية الدفاع عن أنفسهم وقرروا تكوين جيش نظامى يجهز بأحدث الأسلحة والجدير بالذكر ان هذا الحلف كان بمثابـة

القوة لنمو البروتستانتية وتدعيمها ، فازداد عـــدد المنضمين لها ، وقويت ركائز البروتستانتية ، كما اجتمع اللوثريون مرة اخـــرى فى شمالكلد حيث رأوا الاستعانة بملكى فرنسا وانجلترا المناوئين للامبراطور .

ولما رأى الامبراطور عدم جدوى اتخاذ وسائل الشدة مع البروتستانت لم يضع تعليماته باتخاذ القوة معهم موضع التنفيذ خشية قيام حرب أهليـــة لذلك قرر عقد اجتماع لمناقشة الموقف ، وفى أعقابه أصـــدر قرارات أطلق عليه سلام نورنبرج دعا فيه الى وقف المشاحنات والحروب الأهلية داخـــل الامبراطورية ، وتحقيق السلام وكان ذلك من العوامل الذى زادت من رفـــع نجم البروتستانت الذين أعلنوا الوافقة على توحيـــد الصف أمام عـــدوهم المشترك وهم المسلمون .

وبعد ان استقرت الأمـــور للامبراطور ، وخفت متاعبـــه الخارجية وتوقف زحف الأتراك على أوربا قرر الدعوة الى اجتماع مجلس دينى يجمع بين الكاثوليك والبروتستانت عام ١٥٤٥ ولكن البروتستانت رفضوا قبول هذه الدعوة لاعتقادهم أن الامبراطور لا يقصد الا مخـــادعتهم والقضـــاء عليهم ، وهنا قرر الامبراطور استخدام القوة ضدهم .

وفى هذه الأوقات العصـــيبة توفى مارتن لوثر فخسر البروتستانت قائدهم الروحى ، كما خسروا بعد ذلك المعارك مع القوات الامبراطوريـــة التى استطاعت الدخول الى المـــانيا ، واستخدمت وسائل البطش لعدول البروتستانت عن مذهبهم ولكن دون جدوى .

وفى محاولة للتوفيق بين المذهبين حـــاول الامبراطور التوصـــل الى طريقة ترضى الطرفين ، فتوصل الى نظام أطلق عليه النظام المؤقت والذى بمقتضاه يتم التسامح مع البروتستانت ويكفل رضـــاءهم كاباحـــة زواج القسس وطقوس العبادة البروستانتية ومـــع ذلك لم ينجح الامبراطور فى تطبيق هذا النظام حيث رفضه كل من الطرفين مما نتج عنه احتدام الصراع بين الكاثوليك والبروتستانت ، وسارت الأمور فى غير مصلحة الامبراطور ، وتزايد حلفاء البروتستانت حتى اضطرت القوات الامبراطوريـــة الى مغادرة المـــانيا .

وفى فبراير ١٥٥٥ تم دعوة المجلس الامبراطورى للاجتماع لتقرير الصلح مع البروتستانت ، وفى هذا الاجتماع تقرر اعطاء الحرية لكل أمير أن يختار المذهب الذى يقبله فى امارته ، وعلى الرعايا أن يختاروا أما الموافقة على المذهب الذى يرضاه الأمير أو مغادرة الولاية الى المناطق التى تدين بالمذهب الذى يرغبونه ، كما اتفق على أن تبقى أملاك الكنيسة الكاثوليكية التى أخذها البروتستانت فى أيدى من استولى عليها ، وهكذا كان هذا الصلح انتصارا كبيرا للبروتستانتية واستراحت ألمانيا من الحروب الأهلية .

ولم يقتصر الأصلاح على ألمانيا بل انتقل الى الدنمرك والنرويج والسويد وسويسرا وغيرها .

وهكذا يتضح أن شعوب أوربا « القرن السادس عشر » كانت تشعر بقلق روحى بعد أن رأت باباوات الكنيسة ينغمسون فى ملاذ الدنيا ويبتعدون عن الشئون الدينية مما شجع على ظهور الحركات الدينية الاصلاحية التى اتخذت الطابع الثورى فى كثير من الأحيان والتى نجحت فى احياء الشعور القومى فى أحيان أخرى .